

من صرحنا الاجتماعي

الأستاذ محمد عبد الرحيم

كان الاتجاه في القرن الماضي وأوائل القرن الحاضر متأثراً جداً بالتأثير المادي الفردية. فكان الفرد متروكاً لحظه وما يتخذ من وسائل في حياته ومعاشه بحيث لا تتدخل الحكومات بين الأفراد لغير حماية الأمن والنظام وجباية المكوس والضرائب بأنواعها. فنشأ عن ذلك التهام القوى للضعيف وبلغ التطفل الاجتماعي في كل الأمم المتحضرة أقصى دركات التآخر والانحطاط، عاشت الملايين من الناس في حماة الرذيلة والعاقبة، لا يعملون ولا يعني بأمرهم صحياً وخلقياً. واستنحلت الأمراض والعلل الهدامة في جسم المجتمع المريض، ولم تكن لأقوال الكذب قيمة سوى تحريك بعض المحسنين بين آن وآخر لإنشاء مؤسسات للأحسان ودور للعجزة ولكنها كانت من القلة بحيث تشبه الذرة البائسة في محيط الرمال. بيد أن ضمير الكتاب ظل يصور المآسي الاجتماعية الملتفة به والتي تخيم على الشعوب والأفراد. كما انبرى رجال الاجتماع في مختلف الأمم يكتبون ويؤلفون في المباحث الاجتماعية ومعضلات الاجتماع العلمي راجين أن تتبدل أحوال البشرية إلى درجة ارتفاعية تقضي على الفوارق البارزة وتبهيء للأفراد والجماعات حياة في السعادة والتجانس.

ولسنا بصدد التاريخ لهذه الحركات، ولا بصدد المناقشة بين الاتجاهات التي تطور إليها العالم ونشأت عنها المبادئ الاقتصادية والتي لا تزال في صراع إلى يومنا هذا. عل أن الذي يجب أن نقرره هنا أن فساد النظم الاجتماعية لم يقتصر على أمة دون أمة ولا شعب دون شعب وإن أحوال العالم كانت في كثير من الأحيان متأثرة بتطورات غير منظورة. فالحروب التي خاضتها البشرية كان لها كثير من الفضل في التقريب بين الطبقات المختلفة والشعب الواحد ونحو الفوارق إلى حد ما، وتحقيق العدالة الاجتماعية بصورة من الصور وإن لم تأخذ مداها الواسع حتى يومنا هذا. فمثلاً تقدم "شاتون كروفورد" بخطابه في مجلس العموم في ٢٠ سبتمبر سنة ١٨٤١ وصور الكارثة التي حلت بقرية "روتشديل" بانجلترا عقب الانقلاب الصناعي الذي شغل حركة المصانع اليدوية وقضى عليها فقال :

يوجد في قرية "روتشديل" ١٦٠ شخصاً يعيشون على ٢٥ ملجأ في الأسبوع .

« ٢٠٠ شخص « ٤٠ « «

٥٠٨ أشخاص يعيشون على ٥٠ مليا في الأسبوع

٨٥٥ شخصا » ٧٥ » »

١٥٠٠ شخص » ٩٠ » »

ونحسب أمداس هؤلاء الأشخاص لا يجدون غطاء يتدثرون به وتمدثت الصحف السيارة بصورة تلك الآلام التي يعانونها هل هذه القمرية ومنافاة الضرائب المفروضة عليها للعدالة الاجتماعية . فإكان من الحكومة إلا أن أقرت مشروع الضرائب بنسبة الدخل .

وأنت الحرب العظمى الماضية بالاختراعات الحديثة والصناعات الكبرى فزادت الرابطة بين الشعوب وربطت العالم كله بخلاصة من الاتصال بحيث أصبحت اتنازات التي تحدث في أمة تجدد بمجاوبة من الأمم الأخرى . وكان أن آمن الناس والحكومات بأن المال وحده لا يكفي لبنية الشعوب وتأسيس عظمة الأمم، ووضعت الآراء التي كانت خيالية في الماضي، مبادئ أساسية للتنفيذ في الاتجاهات الاجتماعية وقسمت حضارات الأمم بمقياس رقي أفرادها، وانبعاشهم نحو تحقيق المساواة والله . إلا من حيث الملكية فحسب، بل من حيث الصحة وتقوية ذتية الفرد وشعوره بكرامته، وتفتق الملكات الذهنية فيه وبعث مواهبه التي قتلها الجهل والفقر والمرض . وحاربت الأمم هذا التالوث الخفيف، ورغبة منها في الخير الفردي، والخير العام .

وأنت الحرب الحالية فأعلنت من شأن الديمقراطية وحاول قادتها أن يقرروا في الأذهان دعائمها الصحيحة لمختلف الشعوب وأنها تقوم على سيادة وطنية نابذة ومساواة أم القانون وفي الحقوق ، وحرية اجتماعية ومدنية وسياسية . ولم يزد شعور التعاون بين الأمم كلها بمنزل ما حدث في هذه الحرب الأخيرة .

ولم تكن مصر بمعزل عن هذه الاتجاهات كلها، وهي بحكم مركزها الجغرافي في مفترق الطرق بين الشرق والغرب إلى مكائها الملحوظ بين أمام الشرق وبعثتها على جانب خطير من طرق المواصلات، وقد شهدت كل النشاط السياسي والحربي في الحرب الأخيرة، وهذا إلى تاريخها القديم الذي يخلق في أنائها العزة والشعور بالكرامة ويجعلهم يحاولون جاهدين أن يعثوه بين الأمم كزنا وضاء . وما كان لمصر وقد أرست العالم مجددا ودونت في التاريخ صفحات ذهبية مشرقة أن تتأخر حيث يجب أن تتقدم وتسبق . وما قيام وزارة الشؤون الاجتماعية إلا بمجاوبة لهذه الآمال الكريمة .

والباحث الاجتماعى لا يفكر تطورات العالم من حسابه ولا التورط الطويلة التى صرّت بها هذه البلاد ولا العوامل التى أضعفت من شأن الفردية فيها . ولا ينتظر أن يغمض عينيه ويفتحهما كي يرى هذه البلاد روضة فيفانة ، فباغنى ، وتشيع بالصحة ، وتموج بالعلم والجاه ، لأنه يجد أمامه المشاكل الاجتماعية أكثر من أن تعد . وكلما حلت عقدة تطاع الى غيرها رجاء أن يستشرف على النهاية ويستبشر بطلوع فجر يؤمن الناس فيه بأن الخير لا يأتيهم من خارج نفوسهم ، بل من حوافزهم الباطنة التى تدعوهم الى العمل ومسايرة الإصلاح .

وما من شك فى أنه شرعت قوانين لها خطورتها ومقامها الرفع فى فائمه الإصلاح الاجتماعى وآخرها مشروع مكالفة الأمية الذى كان انتاجنا به عظيما ، لا لأنه ولد كاملا ولكن لأن كل تشريع يحاول تثبيت شخصية الفرد ينقذنا من الوصوليين والسماسرة ويجعلنا نتطاع بقلوب مستبشرة ، وفى كثير من الحفاوة الى سيادة الأمة ، سيادة صحبته يجعلها جديرة حقا بالحياة الديمقراطية السليمة ويقضى على الآفات التى تعوق صيحات المحاصيين من أسائها .

وهذا معالى وزير المالية يقول إنه يوجد بين المصريين ثلاثة عشر مائونا لا يملكون شيئا من الأراضي الزراعية . وهو قول على ما فيه من حرارة ، بوضع لما مقدار تباين الطبقات فى مصر ، ويجعل الباحث المنصف يدرك مقدار الصعوبات التى تعترض المصلحين وتجعل الوعي الاجتماعى يستيقظ فى نحول وتراخ ، ولكنه لا يحمل على اليأس ولا ييهت على التشاؤم والنوم . فقد تقدمت خطبة العرش بمعالجة هذه الحل وغيرها لتحقيق العدالة الاجتماعية ، وأورفع المستوى الاجتماعى بحيث يتحقق لكل فرد حياة انسانية . وقد قامت كل وزارة من الوزارات بالمساهمة من طريقها فى رفع هذا المستوى واتجهت الى استغلال جميع الموارد لتحقيق الصالح العام .

وهنا يجدر بنا أن نسأل . هل يجب أن يظل المنفقون بمعزل عن هذه الاتجاهات وأن نكتفى بالقول نرسله بين وقت وآخر وأن يبقى صفوة القادرين فينا بعيدين عن مناصرة الحكومة فى مشاريعها القومية التى تنهض بها وتدعو اليها . ان ظل الأمر هكذا فما أبعد بفر الإصلاح منا . لقد علمتنا الحرب ألوانا من الحياة ، أخذ كل منا نفسه وأهله بها . ومن الكرامة الوطنية أن تنهض فى السلم كراما نعلن الحرب على أحوالنا الاجتماعية بحيث يكون سلاحنا فيها الثقل والطموح لترفع من شأن إخواننا فى الوطن وشركائنا فى نعمائه وبأسائه ونأخذ بيدهم الى حياتنا التى نعيش فيها ونؤدى لهم ضريبة المواهب وحق أخوة الوطن الكريم .

لقد ناديت فى الصحف السيارة بوجوب تجنيد المتعلمين على اختلاف مشاربهم وتباين ثقافتهم تجنيدا اجباريا الى مسقط رأسهم حيث يساهمون وقت فراغهم فى رفع مستوى

أهلهم وعشيرتهم من حياة الجهل الى نور العلم. وأوضحت أن مكاشفة أمية القراءة والكتابة وسيلة لا غاية. ومكاشفة الأمية الغلية يجب أن يحاضر القرويون ومن في حكمهم بواسطة المتعلمين من أبنائهم المجتدين . محاضرات متنوعة في كل المباحث الثقافية التي تختص بها ، توفرها عليها . وإن قرية تظاير ثلاثين محاضرة في عام واحد وفي غير باب واحد لكفيلة بأن تجعلنا أمام وعي انساني جديد وعقليات جديدة وحياة ناشئة رشيدة وأن هذه الدعوة يحسن أن تجد توجيها ورعاية فعلى المتعلمين أن يدفعوا ضريبة المراهب كما يدفع الفنى ضريبة الزكاة ، والمهول ضريبة الأراضى وأن تؤمن جميعا بأننا في اتجاهنا هذا نكون قد عملنا بقول النبي صلى الله عليه وسلم حيناً ربيع من إحدى المغازى فقال ”رجعنا من الجهاد الأصغر الى الجهاد الأكبر . جهاد النفس“ .

خلق الوعي الاجتماعي وتنشيف الشعب الذى لم تسعده الظروف بالجلوس منذ الحداثة الى المؤدبين في دور العلم يجب ألا تقوم به الحكومة وحدها لأنها مهما عملت سيكون عملها بطيئاً محدوداً لا يوائم النهضة ولا يفي بحاجة العصر وكرامة الأمة ولا الى ما تصبو اليه من وضع كريم سريع بين سائر الشعوب .

ومتى شهدت القرى سنة واحدة هذه الحركة استطعنا ان نطلب الى أفراد كل قرية أن ينهضوا من تلقاء نفوسهم باختيار قطعة أرض مهملة تجاور قريتهم وباشتراكهم جميعاً يمكن أن يقام عليها مضخة لباه وصنابير للشرب ومذياع للاستماع ومتزه صغير . وفي هذه الحملات الكريمة التي أرجو أن تتم يمكن أيضاً أن يغمر الجميع نوع من التعاون فتنهض كل جماعة في محيطها بتأسيس الجمعيات التعاونية التي تبث العزة في النفوس وتعمل اصالح الجميع .

ورب سائل يقول هبك أحسكت هذه الخطة وأشأت الوعي الاجتماعي وكألفت الأمية فلا يزال من النالوث الفقر والمرض وكيف تتكون الجمعيات التعاونية من الأيدي الفارغة والبطون الجائعة . ولقد أجاب على هذا السؤال قبلنا اثنا عشر عاملاً في حى متواضع بحارة بقرية روتشديل بانجلترا عام ١٨٤١ فلقد قال ”ملز أشورت“ Miles Ashuorth لرفاقه إن صلاح أمرنا لا يكون إلا باعتمادنا على تعاليم ”روبرت أوين“ كما سمعناه عن تعاليم ”وليم كنج“ وتجربته في بريتون عام ١٨٢٧ وما تلاها . تلك النظم والتعاليم التي إذا أخذنا بها أنفسنا امتنعنا عما عجزنا عن الحصول عليه من زيادة في أجورنا وزيادة في قوة الشراء التي تحصل عليها فإذا اتفقنا على أن نكون جمعية تعاونية لنا على نمط جمعية ”بريتون“ متبكين العوامل التي أثرت في نموها وازدهارها نكون قد سائرنا الحل المعقول في أمرنا ونظرنا الحياة من كوة أوسع من التي نحن فيها وأنا واثق من أن الحصول على المسال في الحالة التي نحن فيها ليس بالأمر الحين ولكن المزمية وحدها تذلل كل شئ . وبعد أن أمن الأعضاء على كلامه أملى

على جيمس دالى James Daly كاتب الجلسة - قرار الجمعية ثم قال "يجب أن نقوم فوراً بجمع المال اللازم لمحل تجارى. أولاً ولا ينسئ ذلك إلا بمراعاة الاقتصاد لتوفير المال اللازم لقيام الجمعية وقد جعلنا السهم فى رأس المال جنيهاً واحداً ولكل عضو من الأعضاء أن يكتب فى سهم واحد يدفع منه ثمانية مايات - بنسبن - وقت الاكتتاب ويدفع الباقي على أقساط أسبوعية كل قسط منها ثمانية مايات كذلك. وعلينا أن ندعو لعملائنا هذا بين طوائفنا رجاء أن يصل الى عدد أكبر مما نحن عليه الآن .

وفى يوم الأحد الحادى عشر من أغسطس عام ١٨٤٤ تم انتخاب اثنين وثلاثين عضواً للقيام بأعباء الجمعية التى تأسست فى حارة تود بقرية روتشديل بانجلترا وافتتحت محلاً تجارياً لها بإيجار سنوى قدره عشرة جنيهات ورأس مال قدره خمسة عشر جنيهاً وبه أصناف محدودة من البقالة والدقيق والزبدة والسكر ويفتح فى ليلتى السبت والاثنين من كل أسبوع ويظل مغلقاً فيما عداهما وقد استقبل من غير أعضائه بفكاشات الناس وتندروهم وما دروا أن أبطال روتشديل قد وضعوا الدعامة الأولى لأكبر المؤسسات العالمية بحيث أصبحت قبلة البلدان ولها فروع فى العالم كله .

ونحن إذا استطعنا أن نركب روح التعاون وتقرب معانيه الحقيقية الى أفراد الشعب ونبسط ومائله نكون قد قمنا بخير كثير بجانب ما تقوم به الحكومة من توزيع بعض الأراضى الزراعية واستصلاح ما لديها من أراض أخرى لتوزيعها .

على أنه يبقى واجب آخر لا يقل أهمية عن هذين يقع على المتخمين من المولدين والملاك للأراضى الزراعية ذلك هو واجب الشعور بالرحمة مع المستأجرين والأجراء عندهم والمبادرة الى التخلص مما يزيد على حاجتهم من الأرض الجيدة بأثمان مقبولة للطامحين من ذوى الملكيات الصغيرة أو لمن لا يملكون أصلاً واستثمار أموالهم فى المشروعات التجارية والصناعية حتى يساهموا بنصيبهم الوطنى وجهادهم القومى ولكن يفسحوا أبواب العمل أمام المتبطلين ومن فى حكمهم ممن لا يكسبون قوتهم إلا بشق الأنفس وبذل الحياة .

محمد عبد الرحيم حسين

(وزارة المعارف)